

المُجَنُّونَ

اقْصُوصَةٌ مِصْرِيَّةٌ
بقلم الأستاذ محمود بك خيرت

تيسيراً لمتابع الحياة ...
ولكن كيف نوفق إلى
اختبار هذا الرقيق والقلب عميق
بميد النور هيهات أن يرتفع
الحجاب عنه فنكشف ما ضمت
ظلماته من مختلف الشهوات
والأهواء؟

ولقد أمكن للملاء أن يضموا للكرة الأرضية
خطوط الأطوال والعروض فأمكن لهم أن يهتدوا
إلى أجزاء الدنيا المريضة الواسعة، ولكن بحر الزواج
الشاسع المتناهي الأطراف لم يظفر يوماً بمثل هذه
الخطوط نسبر بها قرار القلوب وما اندفن في
أغوارها من معاني الخير والشر وأسباب الاستقرار
والانهيار .

نعم إن اختلاط الجذسين وتعارفهما قد يساعد
على الإلمام بأخلاقهما ولكنه في الحقيقة إلمام ناقص
لأن كلا منهما يجتهد في كتمان عيوبه ويتكلف
الظهور في ثوب من محامد الصفات ليست فيه وقد
تعمى القلوب أيضاً عن جمال الصفات بجمال القدرات
« وعين الرضى عن كل عيب كليله » .

على أن من الناس ذوى البصيرة النافذة من
اعتادت عيوبهم تحليل النفوس والنفوذ إليها
فيستخلصون أسرار قلوب الناس من سكوتهم
وحركتهم وحلمهم وغضبهم ومن سرورهم وأحزانهم
ومن أساليبهم في أحاديثهم لأن كل ذلك ينشر من
حولهم شبه موجات تحمل في ذراتها الدقيقة آثاراً
محسوساً من تلك الأسرار .

وقد كانت « جاسن » من هذا القبيل حديثة

لا مناص من الزواج لأنه ركن العمران
وسعادة الأسرة . ولا شك في أن أول الأسباب
الحافزة إليه جمال التكوين لأنه مطمح الشباب
والباب الذي ينفذ منه الحب، ولكن الجمال والشباب
لا يدومان إلا كما تدوم الزهرة الناضرة، حتى أن
المرأة لتلجأ إلى كل الوسائل استبقاء لأثر حسناتها
المولى . وكذلك الرجل، فكان مما لا يد منه أن
يسد هذا الفراغ عاطفة غير عاطفة الحب تستقر
بها هذه العلاقة وتستمر .

نعم إن الزواج في العصر الحاضر ابتعد كثيراً
عن معناه الروحاني الذي كان هناء البيت، لانصراف
الناس إلى المادة واقتنائهم بيريقها، إلا أن للعقلاء
منهم ما زالوا يحسبون للزواج حساباً كبيراً لأن
عليه مستقبلهم ومستقبل أبنائهم وبناتهم

وإذا كان ليس بغريب أن الملاحين يرون غرق
السفن بأعينهم ثم يعمدون إلى البحر وأخطاره لأنه
مادة حياتهم ومصدر رزقهم فأن من غير المستغرب
أيضاً أن الفتيان الذين يدفعهم جنون الشباب إلى
تخطيم سفن الزوجية على مخور غوايتهم يعمدون
إلى ركبها لأنهم مضطرون بحكم الناموس الطبيعي
إلى التفكير في الرقيق الصالح من طريق الزواج

تختل به وتتحدث إليه حتى ألت بأصول الزراعة الشتوية والصيفية وأنواع المحصولات وطرق رى الأطيان وتسميدها وبذرها وغرس عقل أشجار الفاكهة فيها ومواعيد جمع القطن وحصاد الغلال وتقليم الأشجار وتقليمها في مشاتلها ولف فساتل النخيل بالخيش أو الحصير لوقايتها من أشعة الشمس إلى غير ذلك

كانت تحيط بكل هذا علماً وعملاً لأنها كانت كلما قصدت إلى شين مع أبيها تمر بالحقول وتجلس عند السواقي وتزور الأجران وتنطلق إلى زرائب الماشية وحظائر الدواب وتشرف على حلب الأبقار وتربية الدواجن وخلايا النحل حتى أن الفلاحين كانوا يدهشون من إقبال هذه الفتاة الناعمة على مثل هذه الشؤون الخشنة

ولقد مر على زواج جلسن وصادق نصف عام كانت السادة فيه تظللها بظلمها والهناء يرفرف بجناحيه من فوقهما وهو يذهب كل يوم إلى عمله بينما تقوم هي على شؤون البيت ، وكان إذا جاء الليل يقضيان شطراً منه في الحوار والمطالعة ، وإذا حضر الشيخ إبراهيم أشركته معها في التحدث إليه لتدربه على مثل هذه الأمور التي يجملها كما أنها كانت ترافقه إلى شين أحياناً ليكون ما ألم به ثابتاً من طريق عمل

وكان الفلاحون يستقبلونها فرحين وقد اصطفوا على جانبي الطريق ، وهي تحميمهم وتوزع ابتساماتها عليهم وتسالهم عن صغارهم ثم توزع عليهم ما حملته لهم معها من الهدايا والحلوى . وهي تقصد من كل ذلك أن تمد زوجها بالأشرف بنفسه يوماً من الأيام

الدكاء بصيرة بمواقب الأمور حتى أنها لما خطبها « كمال » رفضت يده بمجرد نظرها إليه والاستماع إلى حديثه مع أنه فتى سري جميل . ولكنها قبلت به آخر ليس بالجميل ولا بالدميم وهو مع ذلك رقيق الحال

وقد كانت هذه الفتاة فوق ما هي عليه من أسباب الفتنة ولباقة الشرائل على جانب عظيم من بعد النظر وسداد الرأي تبحث عن كمال السرية قبل جمال الصورة وتنظر إلى الزواج نظرة التي تريد الحياة إلى جانب رفيق يقدرها ومحبا ، وقد قرأت في سداجة خطيبها الثاني مادة أولية يسهل عليها تكييفها بحيث تتفق مع طبيعتها وطبيعتها

ومن أبرز صفات هذه الفتاة أنها لا تجاري فتيات عصرها فيما يسمينه حسنات المدينة فكان من أبنض الأشياء إليها المشد لأنه يضغظ على صدرها وأمعائها فيؤثر في حركة التنفس ويموق عملية الهضم ؛ وإنما كانت تكتفي عنه بحزام لين خفيف لا يؤذيها ، وعن أربطة الجوارب التي تمنع سريان الدم إلى قدميها بمشبك يصل طرف جوربها بطرف سروالها . وكانت تنفر أيضاً من الساحيق والأدهان والأصباغ لأنها تتلف البشرة وتذهب بحاسن الوجه وشتان ما بين الملاحاة الطبيعية والملاحاة المجلوبة ، كما أنها كانت تحقت كشف صدرها وساعديها لأن ذلك يمرضها لتغيرات الجو والأمراض ولا يثمر غير الفتنة والاثم ، وما تبخرت الغفة إلا من فتحات الأكام القصيرة

وكان لأسرة جلسن أطيان فسيحة بشين القناطر يباشر شؤونها ناظر كان كلما هبط إلى القاهرة

على هذه الشؤون لاسيما وأن مرتبه من الحكومة ما كان يتجاوز تسعة جنيهات

وكان كل هذا يباع مسام كمال فتثور نفسه ويأكله الحقد على صادق الذي امتلأت يده بهذه السعادة من دونه وهو لا ينسى ذلك اليوم الذي رفضت جلوس يده فيه فيحز في نفسه أنها تتبعه لتشتري ود ذلك الفر الذي ما كان ليطاوله في المال أو الجمال . ولذلك وقر في نفسه أن ينتقم بالسي إلى إفساد هذا الزواج بهما كافه من الجهد .

وإذا كان الطريق إلى ذلك يقضى بالانجاء نحو المرأة لضعفها ولأنها خافت لتحب وتنعم ، ولكنه يعرف من أخلاق جلوس وصلابة عودها ما صرفه عنها إلى زوجها زميله من أيام المدرسة لأنه ساذج سليم للنية فهو خير مطية يصل بها إلى غرضه ؛ فيفسده عليها حتى لا يبقى لها منه إلا جثة تتحرك أقفرت من تلك الروح التي تحاول إعطاءها شكل القالب الذي فكرت فيه . وكل ما كان عليه أن يهتم له هو إحكام المكيدة التي يدبرها لأن القدرة في عينه ليست في الضربة الشديدة ولكن في الضربة الشديدة التي تصيب .

وكان صادق إذا خرج للرياضة في المساء لا يتأخر عن الساعة الثامنة ليتناول المشاء معها . ولكنها شمعت في الأيام الأخيرة أنه كان يرجع بعد تلك الساعة . وكان إذا سأله في ذلك يدعى أنه تأخر مع إخوانه لأن الحديث كان يلهمهم بغير أن ينتهبوا ثم يمدوا بأنه سوف لا يتأخر بعد ذلك ، ولكنه مع هذا يستمر في تخلفه ، بل إنه كثيراً

ما كان يتأخر إلى منتصف الليل وإلى ما بعده . وأحياناً كان يقضى سواد الليل بعيداً عنها ...

وكان كمال لا تخفى عليه خافية من أحوال صديقه يستدرجه إلى الكشف عنها في حديث أخذ ظاهره مفر وباطنه محجوب بما ينمقه له من حديث الأخلاص وصداقة الصفر

وكان خالياً يقضى أكثر وقته بين الكؤوس والنواني على خلاف صادق الذي لم يكن أول عهده بالحب إلا عند صدر زوجته وهي لا تبسطه إلا بالقدر الذي تستبقه به ، فكان حبها له كالمح في الطمام قليله يصلح وكثيره يفسد . نعم إنه كان في وسعه أن يستزيد منه أو يحسن تذوقه ولكنه كان كالمأزف على آلة يجهلها ولم تمرن أصابعه عليها فأوتارها لا تخرج من النغم ما تطرب له أذناه .

وكان كمال يلمس هذا الضعف فيه فأخذ منه خيرة لما هيا نفسه الشريرة له من وسائل الكيد . وهكذا أبعد عن زوجته على الصورة التي ذكرناها وهو يشجعه شيئاً فشيئاً على السهر ويدفعه إلى الشراب ثم إلى غشيان يجالس الساقطات من النساء وعند ذلك يخيل إليه أنه عثر على ذلك النغم الذي أخطأ أصابعه في البيت فيمنع في الرذيلة دون حاجة إلى إيماء جديد من ذلك الصديق المفسد .

ولقد فكر صادق فيما ينفعه على هذا السبيل ، وكان قد أهدى إلى زوجته خاتماً من ماس في صدر زواجه فمد إلى أخذه بحجة صياغة ذهبه على ابتكار حديث . وهكذا باعه ، ولكنه بمثرثمه كأأن المصلحة قررت فصله لشكر انقطاعه وتراخيه في عمله أما جلوس فقد أحست من أول ليلة تأخر فيها

أما جلست فلم يساورها شك في أن كال هو الذي أفسد ما بينها وبينه وما تزامم الظن على أمر مستور إلا كشفه . وكانت لا تزال تذكر رفضها الزواج منه وأنه كثيراً ما حاول الاتصال بها وهي تحقره وتعرض عنه . ثم تمود فتذكر زوجها وخفته التي جرت إلى الاساءة إليها وإلى نفسه . ولكنها كانت مع ذلك تاتمس له المذنب وقد استغل ذلك الشيطان سلامة قلبه وحسن طويته

وكان على أثر ما انتهى أمره إليه لزم سريره وقد أصابته حمى شديدة عصفت بعقله حتى أوصى الطبيب بالحذر من إثارة أعصابه لأن الحالة التي أصبح فيها تنذر بثورة عنيفة مقبلة فهو بحاجة إلى السكون والراحة وفيهما سلامة محققة تحول دون وقوع تلك الثورة التي قد تكون سيئاً في شفاؤه كما قد تكون القاضية على حياته . ولذلك قامت جلست بنفسها عليه خير قيام وهي تبسم له وتتحاشى لومه وتشجعه وتواسيه

وكان صادق في فترات رشده يعجب بهذه الزوجة التي أخذ صديقه يحذره منها ويرهبها بما ليس فيها ، وهو يقول في نفسه إذا كانت على ما وصف فلم عنايتها هذه به وإشفاقها عليه ؟

وكانت جلست إذا خلدت إلى نفسها تتساول ذكري ذلك المجرم الذي كاد يقضى عليه وهي حيرى لهذه الوسيلة الدنيئة التي لجأ إليها والغرض الذي كان يحاول النفوذ إليه منها . ثم تقول إن زوجها صديقه من الصفر ولم يفعل معه ما يوجب أن ينقلب عليه بمثل تلك القسوة التي لا ذنب له فيها وقد كانت بالمعكس أولى منه بانتقامه فلم وجهه إليه ولم يوجهه

بالخطر الذي يهدق به وبها . وكانت غير مطمئنة إلى ما كان يسوقه لها من وجوه المذرة فأوعزت إلى أخيها بمراقبته . وهكذا وقفت على حر كاته يوماً فيوماً كأنها كانت تقع على صراى منها ، حتى إذا ما علمت بأمر بيع الخاتم وقرار المصلحة ، أحست الهاوية التي عند قدميه وضرورة العمل لرحلته عنها لأن من أعظم الأخطاء المجلة قبل الامكان والثاني بمد الفرصة

وكان صادق كلما أراد كال أن يتقدم به خطوة إلى الأمام في الطريق الذي دفعه إليه بحاسب نفسه ويوازن بينها وبين نفس زوجته فيندم على ما أساء إليها وفرط في حقها ويقوم في خاطره أن يسارع في الاعتراف لها وطالب غفرانها وهي التي فضلت على غيره وآثرته على فقره . فلما شعر كال بأن ندمه أخذ يستتبط وأن صوت ضميره بتأديبه أسرع إلى خنق هذه اللعاطفة التي ظن أنه قضى عليها وانتهى منها فشرع يوسوس له بأن امرأته ما كانت لتجبه وإنما أرادته ليكون زوجاً ... وكفى . وإلا فمن هي تلك التي يتقدم لها من الخطاب من يفضلونه في كل نواحي الحياة من حسن وغيى وجاء فتعرض عنهم إليه إلا إذا كان لها غرض محجوب . ثم لم تجمه بناظر الزرعة ليلقنه مبادئها مع أنه موظف ؟ بل لم يفرض عليه الرحيل إلى شبين في أيام العطلة التي كان أولى بقضائها إلى جانبها ؟ نعم إنها لم تتخلف عن مرافقته إليها إلا مرة واحدة . ولكنه في المستقبل لن تقوم له حجة في اصطحابها ، وهي زوجة عملها في البيت وهو رجل من شأنه الحركة والسمي . وهكذا ضاعف مخاوفه وتسم ظنونه فجرفه التيار ..

هذه السرعة المدهشة وإلى جانبه كنز من كنوز
الحسن ... وغمرة شهية لا تطلب غير الحب ...
ولكنه على ما يبدو لي جامد للشعور أو ينقصه كثير
من سلامة الذوق وإلا لخرّ ساجدا بين قدميك
ولجمل لك من قلبه محراباً يبعدك فيه . وعلى كل
حال فلعلك تدركين الآن أنك لم تحسنى الاختيار
وأن حسابك أخطأ برفضك يدي وإيثارك إياه على ..
(تسمع في خلال ذلك حركة في الغرفة المجاورة ولكه
يستمر في حديثه)

ولكنك ...

— ولكنني لم أخطئ في حسابي يوماً ولا خطر
بيالي أن أندم على اختياره وقد كان عفّ اللسان .
ظاهر الثوب سليم الضمير . ولكن الأصدقاء ...
قرناء السوء هم الذين جروه إلى هذا الدرك . ومن
للغريب أنك تدعى صداقته وتباهى بها ولكنك لم
تعمل عملاً يدل على تبادل عواملها بينك وبينه

— ومن أدراك أنني لم أعرضه نصحي وأحذره
من عاقبة ضلاله . ولكن مالنا ولكل هذا وقد
قضى الأمر فلم تفكرين فيه ولا تفكرين في
مستقبلك أنت . إنك يا جاسن لا تملين مقدار
الحب الذي في قلبي لك والمذاب الذي أعانيه فيك ...
ولو أن هذا المذاب كان ابن يوم أو يومين
لاحتملته ولقضيت على سببه . ولكنه قديم ، قديم
يا جاسن ، من ذلك اليوم الذي تقدمت فيه إليك
فأعرضت عني وحطمت قلبي . وكم حاولت أن أجد
السبيل إليك فأرى الأبواب موصدة في وجهي
حتى إذا سافر إلى شيبين يوماً من الأيام بغير أن

إليها . وعند ذلك يتزحزح الغطاء شيئاً فشيئاً عن
هذا المعنى الذي طالما حيرها . وهو أنه أراد من
إفساد زوجها أن يسوّته في عينيها فينصرف عنه
قلبا وهكذا يخلو له بها الجو . وترتب على ذلك أنه
لا بد إذن من عودته إليها لتنفيذ تلك للغاية السافلة
بعد أن مهد لها بذلك التمهيد الجهنمي ولذلك انتظرت
بقدم ثابتة

— لقد حرّ مرضه في قلبي فأسرعت
لأطمئن عليه

— لا غرابة في ذلك . وأنت صديقه ... الحميم
— ولكني سمعت يا هانم بأنه "جن"

— ... تقريبا . ولذلك فنحن نحرص كل
الحرص على راحته

— وهل تظنين أنه سيشفى ؟

— ولم لا ؟

— ولكن مثل هذه الحالة قل أن نجد سبيلاً
إلى الشفاء لأنني علمت من طبيبه أنه على باب ثورة
عنيفة قد تمصف به

— وقد تشفيه ...

— ربما . ومع ذلك فالذي يشغلني كثيراً
هو أنت أيتها المسكينة لأنه إذا ذهب فقد استراح
وإذا شفى فلن يكون نصيبك منه غير المذاب .
فما الذي بقي لك الآن منه وقد انصرف إلى ملاذ
التي انتمس فيها وهو يقضي لياليه بعيداً عنك بين
أحضان النساء وأكواب الشراب . من كان يظن
أن هذا الحل الوديع يهوى إلى هذا التحدر بمثل

إلى هنا وأنت آمن بمنون آمن بموتى
مالك سكت . تكلم يا حبوب . تكلم يا أنس .
تكلم يا جامد ... ولكنك لا تجرؤ لأننى سممت بأذى
ورأيت بمبنى

نعم أما الآن مجنون فاحذر جنونى ، وإننى كتب
على الموت ولكن بعد أن أجركك كأسه بيدي
وعند ذلك صرخ صرخة هائلة ، ثم أطبق على
عنقه بيديه القويتين فلم يتركه إلا ميتاً
وكانت هى الثورة العنيفة التى أشار إليها
الطيب ... ولكنه شفى ١

محمد خيرت

ترافقيه قلت فى نفسى لقد سنحت الفرصة . ولكنى
لم أكن أوفر حظاً فرفضت مقابلتى وأغلقت أبوابك
من دونى ...

وعند ذلك يفتح الباب على مصراعيه وينطلق
منه المريض وقد احتقن وجهه وانقدت عيناه وكان
وافر الجسم قوي البنية فساد السكوت وهو يذرع
الغرفة طولاً وعرضاً ثم وقف أمام صديقه والحى
تصهره والغضب يرجه :

— أنت هنا ؟ شرفت يا « حبوب » أهلاً
وسهلاً يا « أنس » أليس كذلك يا « جامد » ؟
إننى أعيد على سمك نفس الكلمات التى كنت
تستقبلنى بها فى مجالس ثرابك وفجورك وأنت تدفع
الكأس إلى فى والنساء إلى صدرى وأنت هناك
تحسن لي القبيح وتقبح فى عيني الحسن لأنك
تريد أن أعرف كيف أساير العصر . أما هنا فعنى
ذلك أنك كنت تمحضى النصيح وتحذرنى من عاقبة
الضلال . أليس كذلك ؟ ومن المجيب أنك كنت
تتمنع عن زيارتى بحجة أنك خطبت امرأتى من
قبلى وأن أدب السلوك ودقة الموقف يحولان دون
ذلك ، فإذا جاء الآن بك وأنت الذى كنت تحاول
هذه الزبارة من قبل فى غيبتى ... لقد كنت أعمى حين
وثقت من صداقتك وأحسن ظنى فيك . وما جرنى
إلى طريق الفجوة إلا أنت ، ولا حاول إفسادى إلا
أنت ، ولا طعن هذه السيدة الطاهرة فى عفتها إلا
أنت ؛ فلما أفلت آخر سهم من جيبك وبذلت
الأمول من غايتك ، جئت إلى هنا تتسلل كاللص
لتسرق امرأتى بعد أن سرقت صوابى وعقلي . جئت

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

- ٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة
الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى
والإيطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)
٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات
فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى
والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)
١٨ نباتات الزينة المشبية (على باحدى وتسمين
صورة فنية)
١٥ Les Plantes Herbacées (على بنفس
الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جيم المكاتب الشهيرة
وكتب الزراعة تطلب من
شركة البذور المصرية بميدان ابراهيم باشا